لا تقتلني .. أنا طفل

الدماء تنزف، والنساء تنوح، والعواصف ترعد، والقنابل تتساقط في كل مكان.

وفي وسط القتلى يوجد طفل صغير ما زال على قيد الحياة. إنه طفل من أطفال الحجارة، وقد نجى بإعجوبة من طلقات المدافع والرشاشات. يبحث عن أمه التي كانت تضمه إلى صدرها منذ لحظات. ويمشي الطفل وقدميه تتحرك في بطءٍ وتثاقلٍ. وكان سيره بطيء للغاية وسط الدماء، ووسط القتلى. وهو يبكي ويصرخ ويقول: (أماه، أماه، أماه) أين أنتِ؟.

ولم يمر وقت طويل حتى وجدها وسط القتلى، فَخَر مغشيًّا عليه في مكانه. عاد الطفل على صوت المدافع والرشاشات ينظر باكيًا إلى أمه، فوجد قنبلة يدوية بجوارها.

قرر الطفل الانتقام لأمه من ذلك العدو الغادر الذى حرمه من حنان الأم والوطـن. ومشـى الطفل تائهًا حيران لا يعرف أي طريق يسـلك، يفكـر في أمـه وهو يبكى والدمـوع تنهمر من عينيـه. وانتهى الطفل من مشيه إلى طريق ضيق يؤدي إلى بيت مهجور، بات فيه ليلته وسط العراء والبرودة الشديدة.

اسـتيقظ الطفـل في الصباح، وجـرى وجرى وصعد عـلى قمة حطام دبابة بجانب الطريق، وانتظر حتى اقتربت دورية العدو. وما إن أصبحت بجانبـه حتـى أسرع وألقى عليهـا القنبلة، فاشـتعلت الدوريـة. وجرى الطفـل وهو يلهـث، وأخذتـه قدماه إلى حيـث صوت الريـاح والبرودة الشـديدة وسط الصحراء. وتحركت قدماه على الرمال، وكان سيره بطيئًا للغاية من شدة التعب، وهو يصرخ باكيًا ينادي: (أماه، أماه، أماه).

وسـبح الطفل ببصره في ذلك السهل الكبير المترامي الأطراف، وهو يحترق من نيران العدو، يفكر في أمه وفي وطنه الذى سـلب منه. لم يحس الطفل بمرارة وألم الجوع والعطش قدر ما أحس بمرارة الحرمان. وكان قلبـه مضطربًا زجرًا لما حـدث. ولم تقعده حاجتـه إلى الطعام والشراب عـن المسـير. وتملكه العطش وكان قـد تراءى إليه نهرٌ مـن بعيدٍ، ولكن وجـده سرابًا. وظل الطفل يجري هنـا وهناك حتى نفذت قواه، وأحس الطفل بلهيب الشمس تكاد تحرقه.

وأدرك الطفل أن قواه لن تساعده، حتى على أن يبلغ ذلك النهر الذى تراءى له من بعيد، فخر مغشيًا عليه. ولم يعرف الطفل كم مضى عليه من الوقت، وعاد مرة ثانية وتحركت قدماه على الرمال، وهو لا يكاد يرى من الغبار والرمال، ويمضي الطفل. وإذا بأقدامٍ تمنعه عن المسير. فإذا بأقدام جندي إسرائيلي، فاصفر وجه الطفل منٍ الخوف، وأخذ يتذكر أمه مستجمعًا قواه.

ينادي الجندي بصوت قوي يقول له: من أنت؟.

أنا طفل فلسطيني، سلبت وطني، وقتلت أمي، وجئت إلى هنا أبحث عن الماء.

«أذهب إلى هذا البرميل لأن الماء فيه كثير».

وشعر الطفل بضعفه، يعود إليه وأخذ يزحف ويزحف على الرمال، وهو يصارع الموت وهو يبكي. وصل الطفل إلى البرميل، ووضع يده الصغيرة على غطاء البرميل، وأخذ يرفعه وأمسك بكوب الماء؛ ليضعه على فيه الصغير. وارتمى، وارتمى الطفل على الأرض كعصفور صغير وقع من عشه. وكانت أخر كلماته: لا تقتلنى. أنا طفل. لا تقتلني أنا طفل.